

## ٣ - إخوان الصفاء

## للأستاذ عمر اللسوقي

## رسائلهم

هي موسوعة ضمت بين دفتيها مبادئ العلوم التي كانت معروفة في البلاد العربية حتى القرن الرابع الهجري ، ولا سيما تلك التي ترجمت من اليونانية . وقد اعترف إخوان الصفاء بأنهم ألفوها كمنهج ومقدمات للعلوم فلم يتوسعوا في بسط قضاياها . ويقولون في ذلك : « قد عملنا إحدى وخمسين رسالة في فنون الآداب وغرائب العلوم وطرائف الحكم ، كل واحدة منها شبه المدخل وللقدمات والأتموجج (١) » .

ويظهر أنهم ألفوها للإخوان الأبرار الذين هم أولى طبقات هذه الجماعة ، ولم يقتصرُوا فيها على مبادئ الفلسفة والعلم ، وإنما خلطوها بكثير من الخرافات والأساطير ؛ وحاولوا أن يوفقوا بين الدين والفلسفة محاولين أن يجدوا من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية ما يؤيد نظريات أفلاطون وأرسطو وأفلاطون وغيرهم . وخير ما قيل في وصفها رأى أبي حيان التوحيدي : « هي مبثوثة من كل فن بلا إشباع ولا كفاية ، وهي خرافات وكتابات وتلفيقات وتزويرات » وذلك أنهم قالوا : « إن الشريعة قد دنست بالجهالات واخططت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية ، والمصلحة الاجتهادية » ؛ وزعموا : « أنه متى انتظمت الفلسفة الاجتهادية اليونانية والشريعة الإسلامية قد حصل الكمال » ؛ وحشوا هذه الرسائل بالكلمات اللبينية ، والأمثال الشرعية ، والحروف المحتملة ، والطرق المهمة (٢) .

والواقع يثبت رأى أبي حيان ، فالرسائل لا تعمق فيها ، ولا نظام يربط بين فصولها ، وفيها تكرار وحشو . وعنى أن الرسائل كانت بمثابة موسوعة تبسط فيها المسائل الفلسفية الأولية بأسلوب يوافق عقلية العامة . وحتى لا ينفر هؤلاء

(١) رسائل ج ٤ ص ٢٣٤ (٢) الرسائل مقدمة زكي باشا .

من الفلسفة أخذ مؤلفوها يستشهدون بالآيات والأحاديث الكريمة وبأقوال من التوراة والإنجيل ، وينسبون أشياء إلى نوح وإبراهيم وعيسى ، ويروون قصصاً وأساطير إذا حاولوا البرهنة على مسألة من المسائل بدلاً من استعمال الأسلوب المنطقي الفلسفي . خذ مثلاً محاولتهم البرهنة على خلود النفس فإنك لا ترى سوى أساطير تحكى عن الأنبياء وآل البيت وسقراط وإبراهيم ونوح وأفلاطون وأرسطو وفيثاغور وما قاله كل منهم وما عمله كل (١) . وتخرج من هذا الموضوع إذا بحثته بحثاً علمياً كما ابتدأت فيه دون أن تقتنع ، ولكن عقلية العامة يوافقها هذا الأسلوب تماماً .

هذا وقد وضع الإخوان رسائلهم مقدمة أشبه بالفهرست بنوا فيها بإيجاز عدد الرسائل والموضوعات التي تعرض لها بحجهم : « وهذه فهرست رسائل إخوان الصفاء ، وخلان الوفا ، وأهل العدل ، وأبناء الحمد ، يجمل مانيها وماهية أغراضهم فيها : وهي اثنتان وخمسون رسالة (٢) في فنون العلم وغرائب الحكم وطرائف الآداب وحقائق المعاني من كلام الخلقاء الصوفية ، سان الله قدرهم وحرسهم حيث كانوا في البلاد ؛ وهي مقسومة على أربعة أقسام : فمنها رياضية تعليمية ، ومنها جسمانية طبيعية ، ومنها نفسانية عقلية ، ومنها ناموسية إلهية » . ثم أخذوا يبيئون موضوع كل قسم : فالرياضيات تشمل المدد والهندسة والموسيقى والفلك والصنائع والمنطق بمقولاته وعباراته وبراهينه ؛ والطبيعات يتكلمون فيها على الهيمولي والصورة والسماء والعالم والكون والنساذ وكيفية تكوين المعادن وفي النبات والحيوان ؛ والرسائل النفسانية تبحث في المبادئ العقلية وفي البعث والصور والتشور والقيامة ؛ والإلهية تبحث في الآراء والمذاهب ، وبيان اعتقاد إخوان الصفاء وكيفية أنواع السياسات وماهية الحجر والغزائم . ويختتمونها بالرسالة الجامعة التي لم تصل إلينا والتي كشف فيها كما يقولون عن كثير من الرموز والكتابات التي امتلأت بها رسائلهم : « وتليها الرسالة الجامعة ... المشتمة على حقائقها بأسرارها ... إذ هذه الرسائل كلها كالقدمات لها والمدخل إليها

(١) رسائل ج ٤ ص ١٠٠

(٢) يختلف في عدد الرسائل ولم تقف على حجة ثابتة في هذا الموضوع ولكن يظهر لنا أن عددها واحد وخمسون ، وهناك رسالة جامعة تجرى زبدة الرسائل . بيد أنها لا توجد في المخطوطات التي بين أيدينا ، وقد أشرنا في المقال السابق إلى أن الأستاذ كزأوقاً وجد رسالة يظنها الجامعة فارجع لي ما كتبت هناك .

والواحد من الأعداد هو أصل كل الأعداد ، وعنه تصدر بالتكرار ويذهبون مذهب الفيثاغوريين في ذلك وهو أن الواحد أصل الوجود وإن حاولوا التوفيق بين الدين والفلسفة : « واعلم أن البارى جل ثناؤه أول شيء اخترعه وأبدعه من نوره جوهر بسيط يقال له العقل الفعال كما أنشأ الاثنين من الواحد بالتكرار ، ثم أنشأ النفس الكلية الفلكية من نور العقل . كما أنشأ الثلاثة زيادة الواحد على الإثنين ؛ ثم أنشأ الهيولى الأولى من حركة النفس كما أنشأ الأربعة زيادة الواحد على الثلاثة . ثم أنشأ سائر الخلائق من الهيولى وربتها بتوسط العقل والنفس ؛ كما أنشأ سائر العدد من الأربعة بإضافة ما قبلها إليها »<sup>(١)</sup> ومن ذلك قولهم : « إن منفعة الشكل التَّسَع تسهيل الولادة إذا كتب على خزين لم يصبهما الماء وعلقتهما المرأة التي ضربها الطلق »<sup>(٢)</sup>

ويقولون في نشأة علم الفلك : « إن هرمس الثالث الحكمة وهو ادريس النبى عليه السلام صعد إلى فلك زحل ودار معه ثلاثين سنة حتى شاهد جميع أحوال الفلك ؛ ثم نزل إلى الأرض فخبّر الناس بعلم النجوم ، قال تعالى ( ورفعناه مكاناً علياً )<sup>(٣)</sup> . ويعتقدون بتأثير الكواكب في السعد والنقص « الكواكب السبعة السيارة اثنتان منها نيران ، واثنتان منها سعدان ، واثنتان محسان ، وواحد ممتزج . أما النيران فالشمس والقمر ، والسعدان المشتري والزهرة ، والنحسان زحل والريخ ، وأما الممتزج فعطارد »<sup>(٤)</sup>

وأكثر من ذلك خرافة قولهم : « اعلم يا أخى أن كواكب الفلك هم ملائكة الله وملوك السموات ، خلقهم الله تعالى لمهارة عاله وتديير خلائقه وسياسة برته ، وهم خلفاء الله في أفلاكه ، كما أن ملوك الأرض هم خلفاء الله في أرضه »<sup>(٥)</sup> ويستقدون أن لحركات الأفلاك والكواكب نتهات وألحاناً طيبة لقيدة مفرحة لنفوس أهلها الذين هم الملائكة ؛ فإن قال قائل : « لا بد إذا أن يكون لهم شم وذوق ولمس » قلنا : « إن هذه حاجة الحيوان الأكل للطعام والشارب للشراب ؛ أما هم فنذاؤهم للتسيح ، وشرابهم التهليل ، وفاكهم الفكر والرؤية والفتنة والفرح ... ويقال إن فيثاغور الحكيم سمع بصفاء جوهره وذكاء قلبه نتهات الأفلاك والكواكب ، فاستخرج بمجودة فطرته أصل الموسيقى

والأدلة عليها والأعوذج منها ... وهي منتهى النرض لما قدمناه<sup>(٦)</sup> ومثلهم في ذلك — على حد تمييزهم — كمثل بسنانى له حديقة لم تر العين مثلها حسناً وإبداعاً ، وأراد لكرمه أن يدعو الناس إليها والتمتع بما فيها ، فأخذ تماذج من أزهارها وربا حيتها وفاكها ووضع أمام بابها يمرضها على الناس ، حتى إذا تذوقوها وعرفوا مزايها واشتاقوا نفوسهم لدخول البستان أفسح لهم الطريق كي يتعمروا ما شاءوا ويتلذذوا ويطربوا

ويحتم إخوان الصفاء كل رسالة بنصيحة للأخ البار الرحيم حتى يتفهم غرضها ويعرف أسرارها . ثم إنهم كانوا يكترون من القصص على لسان الحيوان ، ويدلون بأشياء لو صرحوا بها لفضح أمرهم وانكشف سترهم . ومهما يكن الأمر فرسائلهم سهلة الأسلوب خالية من السجع والمحنات البديعية ، واختمة العبارة أحياناً ، غامضة في الغالب من حيث المقصد والغاية . وقد ذكرنا في المقدمة أن النرض من تأليفهم هذه الرسائل بث تاملهم السرية وإيجاد طبقة من الشعب مثقفة تقود الرأى العام إلى أغراضهم السياسية وهي قلب نظام الدولة

### آراؤهم الخيالية

لا يزيد أن نتعرض في هذا البحث إلى كل ما تناوله إخوان الصفا في رسائلهم من خرافات ، وإنما الذى يهمنا أن نضرب أمثلة على إغراقهم في الخيال أحياناً . فأنت ترام مثلاً في رسالة العدد ، وعلى العموم في الرياضيات يتيمون الفيثاغوريين ، فلا يهتمون في البحث في علم الحساب كما يهتمون بتبيان خواص الأعداد والكلام عن موسيقى الأفلاك ... الخ ؛ وهاك مثلاً على ذلك : « اعلم بأن كون العدد على أربع مراتب آحاد وعشرات ومئات وألوف ليس أمراً ضرورياً لازماً لطبيعة العدد ، ولكنه أمر وضي رتبته الحكماء باختبار منهم ، وإنما فعلوا ذلك لتكون الأمور العددية مطابقة لمراتب الأمور الطبيعية ، وذلك أن الأمور الطبيعية أكثرها جعلها البارى جل ثناؤه مراتب منها : الطبايع الأربعة التي هي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، ومثل الأركان الأربعة التي هي النار والهواء والماء والأرض ، ومثل الأخلط الأربعة التي هي الدم والبلغم والصفراء والسوداء ، ومثل الأزمان الأربعة التي هي الربيع والصيف والخريف والشتاء ، ومثل الجهات الأربعة ... الخ »<sup>(١)</sup>

(١) رسائل ج ١ ص ٢٩ (٢) رسائل ج ١ ص ١١

(٣) رسائل ج ١ ص ٩٢ (٤) رسائل ج ١ ص ٩٦

(٥) رسائل ج ١ ص ٩٨

(١) رسائل ج ١ ص ١٩ (٢) رسائل ج ١ ص ٢٧

- ٦ - عالم الأفلاك : وستتكم عليه بالتفصيل فيما بعد  
 ٧ - العناصر السفلى : كالنار والهواء والماء والأرض  
 ٨ - المعادن والنبات والحيوان المتكون من العناصر السابقة . وقد قاضت كلها من الله ، ولكن وقف الفيض بمد الجسم المطلق الذي لم يفيض منه جوهر آخر لنقصان رتبته عن الجواهر الروحانية<sup>(١)</sup>

### عالم الروحانيات :

الأفلاك أجسام كرية شفافة مجوفة ، وهي تسمة أفلاك مركبة بعضها في جوف بعض حلقة البصلة . وهناك كرتان ليستا من الأفلاك ، وهما كرة الهواء وكرة الأرض ، فيكون المجموع إحدى عشرة كرة . وتقع الشمس في الوسط ، وفوقها خمس كرات وتحتها خمس ؛ فالتى فوقها على الترتيب ... كرة المريح ، المشتري ، زحل ، الكواكب الثابتة ، ثم فلك المحيط ، والتي تحتمل على الترتيب ... الزهرة وعطارد ، والقمر ، ثم كرة الهواء ، ثم كرة الأرض التي هي المركز ، وليست مجوفة ولكن متخلخلة والشكل الكروي أفضل الأشكال كلها ، وحركته تامة ، وأفضل الحركات . والفلك المحيط ألطف الأجسام وأشدها روحانية وأشرفها تورا أقربه من الميولى الأولى . والأرض أغلظ الأجسام كلها وأشدها ظلمة لبعدها عن الفلك المحيط . والقمر هو السماء الأولى وعطارد السماء الثانية وهكذا حتى تنتهى من السموات السبع التي آخرها زحل . أما فلك الكواكب الثابتة فهو الكرسى الذى وسع السموات والأرض ، والفلك المحيط هو العرش العظيم الذى يحمله يومئذ ثمانية<sup>(٢)</sup>

### هل قالوا بالنشوء والارتقاء ؟

ذهب بعض الباحثين إلى أن إخوان الصفا كانوا يقولون بنظرية النشوء والارتقاء . والواقع أنهم كانوا بعيدين كل البعد عن هذا ، بيد أن لهم نظرية خاصة في تدرج الأجسام للولادة : « واعلم يا أخى بأن أول مرتبة الحيوان متصل بآخر مرتبة النبات ، وآخر مرتبة الحيوان متصل بأول مرتبة الإنسان ، كما أن أول مرتبة للمدينة متصل بالقراب والماء . فأدون الحيوان وأقصه هو الذى ليس له إلا حاسة واحدة فقط كالحلزون والديدان التى تتكون فى الطين وقعر النهر ... »

(١) ج ٢ من ١٩٨ - ١٩٩ (٢) ج ٢ من ٢٢ رسائل

وتنزهت الأفلاك ، وهو أول من تكلم فى هذا العلم<sup>(٣)</sup> . ولولا خيفة الإطالة لذكرت كثيراً من هذه الآراء المخرافية ، وحسبك أن تقرأ رسالة السحر والطلاسم والتعاويذ ، وكيف يحاولون معرفة الجنين وقدم الرسول ومعرفة الكتاب قبل فضاءه واللص وماذا سرق ومعرفة الحروب وأسبابها ... الخ<sup>(٤)</sup>

### مراتب الوجود :

« اعلم يا أخى أن الله تعالى لما كان تام الوجود بكامل الفضائل ملأ بالكائنات قيل كونها ، قادراً على إيجادها متى شاء لم يكن من الحكمة أن يحدث تلك الفضائل فى ذاته ، فلا يوجد بها ولا يفيضها ؛ فإذا بواجب الحكمة أفاض الجود والفضائل منه كما يفيض من عين الشمس النور والضياء<sup>(٥)</sup> »  
 وقد استمر هذا الفيض فنشأ عنه العالم ، وأنت ترى أنهم يأخذون بنظرية الفيض التى ابتدعتها الأفلاطونية الحديثة ، وأنهم يقولون بالنعانية الإلهية التى وضعها ابن سينا فيما بعد بقوله : « لما كان المبدع الأول يعلم ذاته ويعلم قلبك نظام الخير فى الوجود المطلق كان علة للخير والكمال اللذين أفاض على الوجود عندما أفاض الوجود نفسه ، فانتقل بذلك نظام الخير إلى العالم بحسب التصدر الممكن لهذا العالم<sup>(٦)</sup> »  
 والعالم عندهم على الترتيب الآتى :

- ١ - العقل النعال : وهو جوهر بسيط روحاني أبسط من النفس وأشرف منها قابل لتأييد البارئ تعالى علام بالفضل
- ٢ - النفس الكلية : وهي جوهر بسيطة روحانية علامة بالقوة فاعلة بالطبع قابلة فضائل العقل بلا زمن ، فاعلة فى الميولى بالتحريك لها
- ٣ - الميولى الأولى : وهي جوهر بسيطة روحانية معقولة غير علامة ولا فاعلة بل قابلة آثار النفس بالزمن منضمة لها
- ٤ - الطبيعة الفاعلة : وهي قوة من قوى النفس الكلية سارية فى جميع الأجسام محركة مدبرة لها وتسمى النفوس الجزئية أو الملائكة
- ٥ - الجسم المطلق : ذو الطول والعرض والمتمق وهو

### الميولى الثانية

(١) رسائل ج ١ من ١٥٢ (٢) رسائل ج ١ من ٢٤١

(٣) الرسائل ج ٣ من ١٩٧

(٤) كتاب التجاه لابن سينا وفيه ملخص كتاب الشفاء